أوراق ثقافية
١

إتحاد الشباب الإسلامي الفلسطيني



بين صهاينة اليوم وصليبيي الأمس

الشيخ / عبدالله الشامي

الجماعة الإسلامية

إيمان
وعي
ثورة

تقديم

لأننا نغفل التاريخ ودراسته أو ننظر إليه نظرة انتقائية نختار منه ما يدعم بعض الأفكار التي نروج لها ونوجه سهام حربنا إلى تلك المحطات التي تتناقض مع منطلقاتنا الأيديولوجية المنقولة عن الواقع الغربي ، أصبحنا ولا مكان لنا في الحاضر ، بل للأسف أصبحنا حقل تجارب ،يجرب فينا أعداؤنا أحدث ما أنتجته مصانعهم الحربية ، ويزرع في قلوبنا غدته السرطانية لكي تنمو وتتمدد وتظلل المنطقة بأسرها ، تكريساً لانهزامنا العسكري والحضاري .وفى محاولة للخروج من هذه الدائرة والإفلات من ستارها الضبابي كانت لنا هذه المحاولة في العودة للتاريخ نستقرئ منه حالة ضعف وانكسار تشبه إلى حد كبير ما نحياه اليوم من شرذمة وهوان ، ولعلنا ننهض منها كما نهض مجاهدونا الأبطال واقتلعوا الغدة السرطانية المشابهة والمسماة (إسرائيل) وهذه مجرد محاولة أرجو أن تتاح لنا ولجميع المخلصين والباحثين على تعميقها وتوضيحها وتحويلها دائرة الفعل العملي .

الشيخ / **عبد الله الشامي**

لا نجاوز الحقيقة إذا ما قلنا أن للتاريخ قوانيـــن يتشــكل مـــن خلالها الحدث التاريخي ولكنها ليست بالدقة التي تعتمـــد عليـــها القوانين الرياضية أو العلمية أو التجريبية بحيث تتكرر النتـــائج بصورة متطابقة إذا أعيدت العمليات الحسابية أو التجريبية بنفس الكميات والمقادير .

ولكن القانون التاريخي يعطي نتائج متقاربة في إطارها العـــام وليست بالصورة التفصيلية للحدث. فمثلا هناك قوانين للانتصـــار وأخرى للهزيمة ،فمن أخذ بقوانين النصر مـــن حيــث الأعـــداد للمعركة والتخطيط واختيار الأماكن المناسبة والتوقيت السليم مع معرفة إمكانات الأعداء وقدراتهم وشحذ الروح المعنوية للجنـــود إلى أقصى طاقاتها،فان ذلك في الغالب يؤدي إلى النصر .

ومن هذه المقدمة ندخل في دراســة تاريخيـــة مقارنـــة بيـــن مرحلتين من مراحل الانكســـــار فـــي تـــاريخ أمتنـــا العربيـــة والإسلامية لنعرف ملامح هذين الانكسار يـــن ومـــدى التشـــابه بينهما من حيث المسببات والنتـــائج ونحـــاول التعـــرف علـــى الإمكانات والدوافع التي مكنت أمتنا من التخلص من الانكســـــار الأول والنهوض من عثرته لعله يكون دافعا لنا للخـــــروج مـــن دائرة الانكسار الثاني والنهوض وتحقيق الذات.

نقصد بالانكسار الأول الذي حدث في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي والذي عرف تاريخيا باسم الحروب الصليبية ،حيث كان الواقع السياسي للعالم العربي والإسلامي موزعا بين ثلاث دول كل منها حمل اسم الخلافة وهي:

1_الدولة العباسية وعاصمتها بغداد

2_الدولة الفاطمية وعاصمتها القاهرة

3_الدولة الأموية في الأندلس وعاصمتها قرطبة

هذه الدول كانت تعيش في أواخر عهدها وكانت تعيش مرحلة الضعف والتفسخ حيث كانت مقسمة إلى أتابكيات (إمارات ومدن) مستقلة في إدارتها وان كانت تحمل السيادة الاسمية للدولة الأم سواء كانت عباسية أو فاطمية وفي ظل الدولة العباسية عاشت دولة السلاجقة التي كان لهل دور كبير في هزيمة الدولة البيزنطية في موقعة ملازكرت سنة 1071م ،ولكنها كانت تعيش مرحلة الضعف والتفسخ ،أما الأندلس فكانت تعيش في مرحلة دول الطوائف .والعلاقة بين هذه الأتابكيات أو دول الطوائف كانت علاقات تامرية ذات طابع عدائي في الغالب وتقوم في الغالب على التربص بالدول المجاورة.

وهذا ما يشابه إلى حد كبير واقعنا السياسي العربي والإسلامي في ظل الحقبة الصهيونية حيث نجد الدول العربية والإسلامية

ذات العواصم المتعددة والأعلام المتنافرة والولآت المتباينة والحدود المستقلة والحكومات التنفيذية ،ونجد أن علاقات هذه الدول فيما بينها تقوم على عدم الثقة أن لم تحمل في كثير من جوانبها طابع التربص والتآمر ووجدنا العديد منها يستعين بالأعداء كما زمن الصليبين متجسدا اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانية وإسرائيل ،فيذكر لنا التاريخ أن اتابك دمشق "مجير الدين أبق "قد استنجد بالصليبين حين حاول "نور الدين محمود "الزنكي ضم دمشق إلى مشروعه المتمثل في إقامة جبهة إسلامية واحدة للتصدي للصليبين ،وكذلك استنجد" ضرغام "قائد عسكري في الدولة الفاطمية بالصليبين أثناء صراعه مع شاور "والي الصعيد على الوزارة في مصر ،ثم إن "شاور"ذاته والذي كان قد استنجد بالزنكيين ضد "ضرغام"وجدناه يستنجد بالصليبين فيما بعد ضد الزنكيين حلفاءه السابقين .

وها نحن نرى اليوم نفس الحالة تتكرر حيث استنجدت دول الخليج العربي بقوات التحالف الغربي والتي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية لضرب العراق وتدمير قدراته العسكرية والاقتصادية بالنيابة عن إسرائيل لأنها قد تشكل خطرا مستقبليا عليها ،ورأينا في لبنان أن الكتائب والمارونيين يستعينون بالصهاينة في صراعهم مع القوى الأخرى في لبنان،والمنشقين

في جنوب السودان يستعينون بأعداء السودان لضرب مشـروعه النهضوي وتمزيقه بين شمال وجنـوب لإحـداث مزيـد مـن التجزئة والتفسيخ وزيادة عدد الأتابكيات المسماة دولا.

أما الطرف الآخر من الصراع فكانت الإمارات الصليبيـة فـي بلاد الشام والتي تقودها مملكة بيت المقدس كانت تمثل عنفـوان القوة الأوروبية (الأمراء والفرسان)والتي جاءت فـي حمـلات متعددة لم تتوقف منذ أن اسـتجابة تلـك القـوات إلـى دعـوة البابا"أوربان الثاني"عام1095م في مجمع كليرمونت بفرنسا وحتى رحيلهم كليا من آخر موطئ قدم لهم في عكا عام1291م،وقفـت أوروبا بكاملها خلف هذه الإمارات ،وكان يقود هـذه الحمـلات الأباطرة والملوك والأمراء مـن فرنسـا وبريطانيـة وألمانيـا والنورمان ...هذا يكشف لنا حجم المشروع الصليبـي وحجـم القوى الداعمة له والمدافعة عنه والذي يشكل في جوهره حلقـة أخرى من حلقات الصراع بين الشرق والغرب.

ويقابل ذلك اليوم في مرحلة الانكسار الثاني دولة إسرائيل مقابِلـة لمملكة بيت المقدس ،وتمثل كذلك عنفوان القـوة فـي المنطقـة ،وهذه القوة ليست نا بعة من الذات من حيث الخبرة والإمكانـات ولكنها مزودة بها من الغرب الأمريكي الأوروبي منـذ نشـأتها وحتى الآن ، وكذلك أخذت دول الغرب علـى عاتقـها حمايـة

إسرائيل والحفاظ على أمنها مهما كانت الظروف ، وهــذا مــا أعلنه رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية في مناســبات متعــددة (حيث أن هدفهم أن تبقى حالة التفوق العسكري الإسرائيلي قائمة وان يعملوا ما بوسعهم للحفاظ على أمنها).ولم يكتفــوا بمنطــق القول بل مارسوه عمليا وفي أوقات متعددة،وعلى سبيل المثـــال المؤتمر الذي عقدته الولايات المتحدة الأمريكية في شرم الشـــيخ ودعت إليه الكثير من قادة وزعماء دول العالم لحفظ أمن دولـــة إسرائيل بعد أن اهتز المجتمع الإسرائيلي على أثـــر العمليـات العسكرية الاستشهادية التي ضربت المجتمع الإسرائيلي في فـترة أسبوع واحد .وكذلك التدخل العسكري المباشر في حرب أكتوبـو حينما أقامت أمريكيا جسرا جويا مباشرا لإسرائيل بعــد تحطـم قوتها العسكرية في الضربة الأولى في سيناء، وهذا يشــبه إلــى حد كبير الحملة الصليبية الثانية التي أرسلها الغــرب الصليبــي لنجدة الإمارات الصليبية في بلاد الشام ومحاولة استرداد إمــارة الرها من أيدي المسلمين بعد أن تمكــن القــائد "عمــاد الديــن زنكي"من انتزاعها من الصليبين سنة1144م.

ولانستطيع أن نغفل أن الحملات الصليبية المتعددة والتي لــم تتوقف كانت في حقيقتها هجــرات شــعبية وعســكرية تــهدف للاستيطان في بلاد الشام وعلى ساحل البحر المتوسط بــالتحديد

لزرع جسما غريبا في المنطقة يحفظ للغرب الأوروبي مصالحه الدينية والاقتصادية ،وتهدف إلى حل بعض المشاكل السياسية في الغرب الأوروبي الناشئة عن الصراع بين الأمراء بسبب الإقطاع ونظام التوريث الذي حصر الإرث في الابن الأكبر وحرم باقي الأبناء من وراثة الأراضي والضياع مما جعلهم يدخلون في صراعات مع بعضهم البعض لتشكيل إمارات لهم ووجد هؤلاء الأمراء حلا لمشكلتهم في بلاد الشام .هذا ما نشاهده اليوم من خلال الهجرات اليهودية والتي لم تتوقف منذ وقبل الإعلان عن قرار بلفور سنة 1917م وحتى الآن هدفها الاستيطان في فلسطين لزرع هذا الكيان الغريب في قلب أمتنا يحفظ للغرب الأوروبي مصالحه السياسية والاقتصادية عن طريق تهديد المنطقة وإخضاعها للهيمنة الغربية .وهذا يشكل من ناحية أخرى حلا للمشكلة اليهودية في المجتمع الأوروبي والتي كانت تشكل شوكة في خاصرة المجتمع على مدار عقود طويلة ، فهم اليوم يسعون لحل هذه المشكلة كما في الماضي على حسابنا وفوق أرضنا وليخلقوا لنا مشاكل جديدة .

أما من الناحية الاقتصادية فقد جاءت الحروب الصليبية فيما سميناه بالانكسار الأول لتحقيق عدد من الأهداف الاقتصادية مثل

حل مشكلة الفقر والجوع وأوضاع الفلاحين بالغة السوء حيث كانوا مرتبطين بالأرض لا يستطيعون مغادرتها لان الأرض ومن عليها ملكا للسيد الإقطاعي وكذلك سعى تجار أوروبا للوصول إلى موانئ الشرق للتبادل التجاري دون وساطة المسلمين والتخلص من الضرائب والمكوس التي كانوا يدفعونها للمسلمين ولذلك دغدغ البابا عواطفهم حينما طلب منهم الذهاب إلى أرض السمن واللبن والعسل .

ولا يمكن أن نغفل اليوم البعد الاقتصادي في الصراع الدائر في المنطقة من حيث أهمية الموقع الذي تحتله فلسطين وإشرافها على أهم شريان في طرق المواصلات العالمية (قناة السويس)بالإضافة إلى الأهمية القصوى للنفط والذي يمتلك العالم العربي ثلثي احتياطه العالمي وما يمثله هذا النفط من عماد الحضارة المعاصرة ،فهم يريدون أن نبقى نحن وأرضنا ونفطنا تحت رحمتهم لأنهم هم المستورد الأساسي للنفط.

وكذلك يسعى الغرب بصورة دائمة إلى استنزاف موارد ومقدرات المنطقة في الحروب الطاحنة التي تجري بين الدول العربية وإسرائيل، ولا ننسى أن المستفيد الوحيد من هذه الحروب هي دول الغرب المتقدمة صناعيا وعسكريا وهي التي تتنافس على بيع الأسلحة للدول المتصارعة في المنطقة مما

يحافظ على استمرار وتطوير صناعتها وزيادة رفاهية شعوبها في الوقت الذي تزداد شعوب المنطقة فقرا وتتجزر فيها الأزمات والقلاقل ، فتبقى في حاجة مستمرة إلى تدخلات دول الغرب بما تملكه من تأثير ،للعمل على تهدئة الأوضاع أو للحفاظ على الواقع الراهن .وفي كل الحالات نبقى نحن الخاسرين وهم المستفيدين على كل الصعد.

أما من الناحية الدينية ، فالحروب الصليبية كما سبق القول جاءت استجابة إلى دعوة البابا أوربان الثاني سنة 1095م وهدفت إلي تخليص قبر المسيح (المنقذ)واسترداد الصليب المقدس ،وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت زعامة البابا"بمعنى تحت زعامة الكنيسة الغربية" بعد الصراع المرير بين الكنيستين والذي أدى إلى الانفصال بسبب الخلاف العقائدي حول تفسير طبيعة المسيح (عليه السلام) بين الإلهية والبشرية،وكذلك لتأمين طرق الحجاج المسيحيين على حد زعمهم بأنهم كانوا يتعرضون للاضطهاد من قبل المسلمين أثناء توجههم إلى بيت المقدس.هذه الدوافع الصليبية هي التي غلفت الحروب الصليبية والتي استمدت اسمها من الصليب الذي حمله الصليبيون راية لهم ورسموه على ثيابهم ودروعهم،وهي الصبغة ذات اللون الأكثر وضوحا للحروب الصليبية .

واليوم نجد أن الدافع الأكثر وضوحا للواقع اليهودي المتحرك منذ نهاية القرن الماضي باتجاه إقامة دولة يهودية علـــى أرض فلسطين من منطلق توراتي بحجة أنها أرض الميعاد التي وعدها الله لشعبه المختار "بني إسرائيل "حسب زعمهم...والذاهبين إلـــى فلسطين للبحث عن مكان الهيكل المقدس لاعادة بنائه من جديـــد إحياء لمملكة سليمان (عليه السلام).

فإسرائيل إذن قامت على أسس دينية لتحقق أهدافا دينية كمـــا كانت الحروب الصليبية تعبيرا عن استجابة المجتمع الأوروبـــي المسيحي لدعوة البابا "أوربان"...حين قال:"ضع صليبـــك علـــى كتفك واتبعني..."

ولا يمكن أن نغفل الجانب الحضاري لهذا الصراع حيـث أن الحضارة العربية الإسلامية قد اقتحمت أوروبا الغربية في وقـــت مبكر لتأسس فيها الركائز الحضارية منطلقة من الأندلـــس ،فـــي الوقت الذي كانت أوروبا تعيش في عصور الظلام ،ومع دبيـــب عوامل الضعف في الدولة الإسلامية الأندلسية بـــدأت حـــروب الاسترداد الصليبي هناك تؤتي ثمارها منذ اندحار المسلمين مـــن طليطلة سنة 1086م فهذه شكلت عاملا دافعا لتحقيق انتصـــارات صليبية مشابهة في الشرق ، وبقي هـــذا الصـــراع الحضـــاري مفتوحا على مصاريعه بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبـــي

المسيحي والذي قادت رايته الدولة العثمانية المنتصرة منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي وحتى نهاية القرن الثامن عشر حيث شاخت الدولة العثمانية ونخرتها عوامل الضعف ،وانطلقت أوروبا ثائرة نحو الشرق مسخرة ما أنتجته ثورتها الصناعية لتحقيق السيادة الحضارية لها فيما تم تسميته بالاستعمار ،وبقيت راية الحضارة الغربية مرتفعة فيما الحضارة العربية الإسلامية لازالت تتلمس خطواتها بحثا عن موطئ قدم لها في سلم الحضارة المعاصرة .ودولة إسرائيل هي إفراز طبيعي للحضارة الغربية ،من حيث أن الغرب هو الذي صدرها إلى منطقتنا ومن حيث نظمها السياسية والاقتصادية ومن حيث نتاجها العلمي والأدبي ويدعم هذا شريان الحياة المتدفق نحوها من الغرب الأوروبي برفدها بكل الأمصال والفيتامينات والأنزيمات التي تضمن لها الاستمرار في العيش ،ومن جانب آخر نرى أن طابع العنف الإجرامي للدولة الصهيونية هو استمرار لنفس الطابع الذي غلف الحروب الصليبية من حيث المجازر التي صاحبت قيام الإمارة الصليبية في بيت المقدس حيث تذكر لنا مصادر التاريخ أن الصليبيين ارتكبوا مذابح بشعة ضد المسلمين في فلسطين وفي بيت المقدس وحدها قتلوا سبعين ألفا أما عن

المذابح التي ارتكبها الصهاينة في فلسطين وخارجها فحدث ولاحرج.

وبناء على ما سبق فان إسرائيل هي إفراز حضاري غربي في قلب منطقتنا وهذا الذي عبر عنه بوضوح رئيس الوزراء الإسرائيلي "نتنياهو"بقوله :يجب أن نهيئ أنفسنا لمرحلة طويلة من الصراع في المنطقة ،لأن طبيعة الصراع الحضاري هو القائم بين الشرق والغرب ونحن (أي إسرائيل)نمثل الحضارة الغربية في المنطقة في صراعها مع حضارة الشرق .

مما سبق إيجازه نجد أن هناك تشابه كبير بين الحروب الصليبية والحروب الصهيونية والتي استهدفت كل منها بلاد الشام ،مستغلة واقع الضعف والتمزق السياسي للمنطقة ،معتمدة على القوة العسكرية في تحقيق أهدافها الدينية والاقتصادية والسياسية ضد الإسلام وأمة الإسلام وأرض الإسلام .

ومن خلال دراستنا للخطوات التي اتبعها المسلمون في مواجهة الصليبيين وطردهم من بلاد الشام سيكون لنا طريق هداية وصراطا واضحا نسير عليه وطريقا مخطوطا نعبر منه نحو فلسطين العروبة الإسلام لنلغي منها دولة إسرائيل كما تم إلغاء مملكة بيت المقدس الصليبية بإذن الله.

إن أول المحاولات الجادة التي بذلها المسلمون في مواجهة الصليبيين في بلاد الشام كانت تحت زعامة القائد البطل "عماد الدين زنكي "والذي استطاع أن يخرج من واقع التجزئة الذي عاشته المنطقة في زمانه بالقوة المسلحة تحت راية الإسلام ساعيا إلى تشكيل جبهة إسلامية متحدة على حساب الأتابكيات والمدن والحصون التي كانت تحيط به (مراكز الحكم المحلية)وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ،هادن عماد زنكي الصليبيين إلى فترة محدودة من الزمن_ وليس سلاما إستراتيجيا كما يحلو للبعض أن يسمي انهزامه _،وبعد أن حقق نجاحا جزئيا في توحيد شمال الشام وشمال العراق هاجم أول إمارة صليبية قامت في بلاد الشام سنة 1098م وهي إمارة الرها ولتسقط في يده سنة 1144م بعد أن بقيت في أيديهم ما يقارب نصف قرن،

وليصبح بطلا عظيما في نفوس المسلمين ،_لأن البطل الحقيقي هو الذي ينتزع الفريسة من فم الأسد وليس الذي يلبس ثوبه وهو لا يصل إلى مخلبه _،ومن بعده جاء ولده "نور الدين محمود "ليكمل المشروع الذي بدأه والده "عماد الدين"وضم دمشق إلى نفوذه سنة 1154م رغم وقوف الصليبيين في وجهه واستنجاد حاكم دمشق "مجير الدين أبق" بهم.وبعد ذلك وجه نور الدين

محمود نظره نحو مصر لإدراكه أن الحرب الصليبية الشاملة تحتاج إلى حرب عربية إسلامية شاملة،وأصبحت مصر مكان الصراع بين الصليبين والزنكيين ،فالزنكيون يريدون أن يحكموا الحصار على الصليبين من جميع الجهات من الشمال والشرق والجنوب (الشام والعراق ومصر)والصليبيون يريدون أن يفشلوا هذا المخطط ليطيلوا فترة بقائهم في بلاد الشام أطول فترة ممكنة.وفي النهاية نجح نور الدين محمود من خلال قواده (أسد الدين شيركوه وصلاح الدين)من دخول مصر ليجهزوا على الدولة الفاطمية التي كانت تموت موتا بطيئا وليضعوا الصليبين بين فكي الرحى،ثم جاء صلاح الدين الأيوبي ليجني ثمار غوس عماد الدين ونور الدين وليعلن الحرب الشاملة على الوجود الصليبي في بلاد الشام ولينتصر الانتصار المؤزر في معركة حطين سنة 1187م بعد أن عبأ طاقات الأمة كاملة في مواجهة الصليبين والغرب الأوروبي مجتمعين.

فهل أدركنا الآن السبب في إصرار الغرب الأوروبي وعلى رأسه أمريكيا ودولة إسرائيل على بقاء واقع التجزئة ودخولهم في الحرب الضروس ضد العراق حين حاول أن يلغي إحدى دول التجزئة. إن الغرب لا يريد لنا أن نتحد أو تتجمع جهودنا أو حتى تتوحد مواقفنا السياسية لأنه يرى في ذلك تهديدا

لمصالحه ولمملكته الصليبية (الصهيونية)في المنطقـــة.إن بقـــاء الأساطيل الغربية في منطقة الخليج العربي هو لحمايـــة أنظمـــة التجزئة وللوقوف في وجه إيران الإسلام إذا ما فكرت في مثـــل ما فكر فيه الزنكيون والأكراد وممثلهم في ذلك صــــلاح الديـــن الأيوبي.إن إيران الإسلام وحزب الله وحركة الجهاد الإســـلامي وحماس هم الذين يجسدون جهاد الزنكيين والأيوبيين فـــي هـــذه المرحلة.

وعلى نفس الأرضية نستطيع أن نقيـــم الموقـــف الأمريكـــي والأنظمة العربية متحدين مع إسرائيل فـــي عدائـــهم للحركـــات الإسلامية المجاهدة ووضعها على قائمة الإرهاب وتحت طائلـــة الملاحقة الأمنية المشتركة،لأنـــهم يدركـــون أن الـــذي حـــرك الجماهير العربية والإسلامية للقضاء على الإمارات الصليبيـــة في فلسطين إنما هو الإسلام المجاهد وأن الـــذي أزال عـــروش الأتابكيات المتحالفة مع الصليبيين والقادر على إزالة الأتابكيـــات المعاصرة (المسماة دولا عربية واسلامية)هو الإسلام المجـــاهد ومن ثم هو القادر على ضرب مصالح الغـــرب فـــي المنطقـــة واقتلاع المملكة الصهيونية من المنطقة هو الإسلام المجاهد الذي يملك كل عوامل التوحيد بعيدا عن المذهبية والقومية والقطريـــة

وهو القادر على أن يعيد المسار الحضاري الإسلامي إلى مداره ليقيم دولة العدل في الأرض بعد أن ملأها الجور والفساد .

فهل نستفيد من دراسة التاريخ عبر فهم قوانينه أو سننه كما سماها القرآن الكريم "قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين"لمواجهة واقعنا والخروج من أزماتنا ؟أم نبقى كالأنعام تسوقنا الكلاب وتطاردنا الذئاب تلعب بنا وقتما شاءت وتأكلنا وقتما جاءت . هل نعتبر من الماضي لنعيد صياغة الحاضرعملا بقول الله سبحانه "فاعتبروا يا أولي الأبصار "؟أم نقبل أن تكون قلوبنا عمياء فنتردى في واقعنا على غير هدى "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فالصدور".

تمت بحمد الله